الشبابُ وَالدِّين

تأليف

الشيخ محمد حسن آل ياسين



الشبابُ والدِّين

تأليف

الشيخ محمد حسن آل ياسين





١٤٣٨ هـ / ٢٠١٧ م



رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٢٥٢٣) لسنة ٢٠١٧م



اسم الإصدار: الشبابُ والدِّين.

تأليف: الشيخ محمد حسن آل ياسين.

الناشر: الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة – قسم الشؤون الفكرية والإعلام.

الكمية: ١٠٠٠.

الطبعة: السابعة.

المطبعة: دار الكفيل.

التاريخ: ١٤٣٨ هـ / ٢٠١٧ م.

موقع العتبة المقدسة: www.aljawadain.org للمراسلة: fikriya@ aljawadain. org



الحمد لله الذي مَن علينا باليقين، وشيّد أعلام الدين بكتابه المبين، وبيّن أصوله ومنهج شريعته بمحكم التبيين، والصلاة والسلام على خير خلقه وأشرف بريته النبي المؤيّد والرسول المسدّد أبي القاسم محمد ﷺ وعلى آله الأكرمين الهداة المنتجبين.

وبعد

ينتج غياب الرؤية السليمة الكاملة وتهافت المسلمات في أي منظومة فكرية عدم ارتياح وتوجساً ثم قلقاً فاضطراباً ثم بحثاً عن حلول خارج المنظومة المتبعة، وتبديل الناس معتقداتهم دليل حي.

ويدخل الإسلام في هذا التعميم كنظام له خصائصه ومقوماته، طرح تصوراته عن الكون والحياة، ونشر قوانين وأحكام مستمدة من تصوراته ليبلغ بالإنسان مكانته المنظورة.

لكن هل الإسلام فاقد للرؤية أم يملكها وهي تامة كاملة فيه؟ وهل التقصير في المتلقي حين طلب المعرفة ولم يخط الخطوات المفروضة إتباعها؟ فأخذ من منبع غير صافٍ وترك المعين، فلم تطمئن نفسه فوقع في حيرة من أمره.

والحقيقة أن المتلقي هو العلة فيما يقع فيه بعد أن خاطب الإسلام فطرة الإنسان وبرهن على تصوراته بما لا يدع شكاً في قلب ولا وسواس في صدر، وأثبت أنه يملك رؤية وتفسيراً شاملاً للكون والحياة، وتشريعاته تستوعب شؤون الحياة كلها، ويحمل الإجابات الوافية الشافية لكل ما يجول في الخاطر، وهذا الكتاب شاهد على ما نقول.

وكان قد كتبه سماحة العلامة الشيخ محمد حسن آل يس قدس سره إجابة لخمسة أسئلة طرحها طلبة جامعيون في مواضيع اعتقادية تمحورت موضوعاتها في:-

* إذا كان الإله رحيماً فلِمَ خلق الشر، وإن كان قادراً فلِمَ لا يوجد الخير فقط؟

* تخبرنا الكتب السماوية أن نهاية كلّ إنسان مثبتة إما سعادة أو شقاء فلِمَ يلزمنا الإله بهذا التكليف؟ مع أن التكليف قد ينقض مشيئة الإله؟

* ما السبب في تعدد الأديان إذا كانت جميعها تحمل الأفكار والمعاني نفسها؟

* مخالفة العلم للدين في قضية الروح، وأن الحياة مادية فقط ولا يوجد وراء المادة شيء، وما هي حجة المؤمنين إذا خلق الإنسان الإنسان؟

* مخالفة النتائج العلمية لما جاءت به الكتب السماوية حول خلق الإنسان وشكله وتركيبته؟

ولمّا كانت هذه الأسئلة وأمثالها موجودة اليوم بقوة في الوسط الشبابي ارتأت الأمانة العامة للعتبة الكاظمية المقدسة، وحدة البحوث والدراسات إعادة نشر هذا الكتاب لما فيه من فائدة لا تُنكر وحلول تُؤثر، آملين من المولى أن يكون هذا الكتاب خير معين لشبابنا، وأن يجعل أجر هذا البحث نوراً نازلاً وثواباً جزيلاً لمؤلفه إنه سميع الدعاء.



صورة المؤلف



الشيخ محمد حسن آل ياسين

وُلد في أسرة علمية مرموقة خدمت العلم وأنجبت العديد من الأعلام، فهو ابن الشيخ محمد رضا آل ياسين أحد مراجع عصره الذي عبّر عنه الشيخ الأميني صاحب الغدير بـ(شيخنا الأكبر محمد الرضا آل ياسين الكاظمي النجفي دامت أيامه وأفاضاته)[1]، وقد أرّخ والده عام ولادته (قُلْ لِيَهنَ «الرضا» بمولده)[2]، والذي يصادف الثامن عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٥٠هـ.

نشأ في مدينة النجف الأشرف - حيث يقيم والده - وتحت رعايته، وتعلّم الكتابة والقراءة من الكتاتيب، وبعدها دخل مدرسة منتدى النشر، وحضر بعدها دروس العلوم الشرعية على فضلاء تلامذة والده أمثال الشيخ عباس الرميثي والشيخ محمد طاهر آل الشيخ راضي، و(درس البحث الخارج عند عدد من أساتذة النجف منهم السيد أبو القاسم الخوئي وعمّه الشيخ مرتضى، وحضر درس

(١) الغدير، الأميني ٨/٢.

(٢) كواكب المشهد الكاظمي، عبد الكريم الدباغ ١/٣٥٧.

والده في السنتين الأخيرتين من حياته)[1]، وكانت وفاة والده سنة ١٣٧٠هـ، وبعدها بسنتين مات عمّه الشيخ راضي آل ياسين، فهاجر إلى الكاظمية تلبية لطلب كثير من المؤمنين من أهالي الكاظمية ليحلّ محلّ عمّه في إمامة المسجد والإرشاد والهداية، وأسس مكتبة الإمام الحسن عليه السلام في الكاظمية، ودار المعارف للنشر العلمي وذلك بمعونة بعض أهل الكاظمية، وترأس الجمعية الإسلامية للخدمات الثقافية، وأشرف على مجلتها (البلاغ) والتي استمر صدورها أكثر من عشر سنوات.

وفي سنة ١٤٠٠هـ، عُيّن عضواً عاملاً في المجمع العلمي العراقي، وفي السنة نفسها عُيّن عضواً مؤازراً في مجمع اللغة العربية الأردني، وبعد خمسة عشر عاماً عُيّن زميلاً في هيئة ملتقى الرواد، وبعدها بثلاث سنوات اختير عضوَ شرف في المجمع العلمي العراقي، ويدل ذلك كلّه على مكانته المرموقة في الأوساط العلمية، وله آثار كثيرة تأليفاً وتحقيقاً، فقد عُدَّ له مئة مؤلف في مختلف فروع المعرفة، فضلاً عن (٥٠) كتاباً محققاً، وأبحاث في المجلات والصحف، ففي أصول الدين كَتَبَ (الله بين الفطرة والدليل، والنبوة والإمامة، والإنسان بين الجبر والاختيار، والمعاد)، وألّف في سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله (في رحاب الرسول)، وسيرة الأئمة الطاهرين عليهم السلام، وألّف حوالي ثلاثين كتاباً في

(١) ماضي النجف وحاضرها، جعفر محبوبة ٣/٥٣٠.

سيرة الصحابة الكرام، وله تأليف في تأريخ المشهد الكاظمي، وله في اللغة الكثير مثل تحقيق معجم العُباب الزاخر للصغاني، وتحقيق المعجم المحيط للصاحب بن عباد.

وللاطلاع على سيرته الدراسية والعلمية وآثاره وما قيل في رثائه يمكن مراجعة المجلد (صفر) من موسوعته التي نشرتها في بيروت عام ٢٠١٢م دار المؤرخ العربي وقد ضمّت مؤلفاته في (١٧) مجلداً، وأما كتبه المحققة فلم تُطبع لحد الآن. كما يمكن الاطلاع على مختلف جوانب حياته المباركة من خلال رابط موقعه على الأنترنيت: (al-yaseen.org).

توفي في الكاظمية في السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٤٢٧هـ، ودفن في إحدى الحجرات الشرقية في الصحن الكاظمي الشريف قرب باب الرجاء.



شباب اليوم -بحكم انغماره في دراساته الجامعية وأعماله الوظيفية، وبحكم أجواء اللهو والإغراء المفتوحة أمامه- بعيد جداً وإلى أبعد حدود البعد؛ عن تراثه الفكري -كل التراث- بشكل عام، وعن تراثه الديني والعقيدي بشكل خاص.

وتلك ظاهرة محسوسة ملموسة لا مجال لنكرانها ولا محيص من الاعتراف بها على أي حال.

ولما كان لكل ظاهرة من الظواهر سبب أو أسباب لحدوثها -إذ لا ظاهرة بدون سبب-، فإن لهذه الظاهرة أسبابها أيضاً.

ولعل من أبرز أسبابها: أن حقائق الدين لم تطرح بين الناس بجوهرها الأصيل ولبّها النقي المهذب من القشور والأقذاء والأكدار إلا فيما شذَّ وندر، وقد لعبت العصبيات المذهبية والتزمت الطائفي دوراً كبيراً في (تغليف) تلك الحقائق وإبرازها بالشكل الذي يخدم هذا المذهب أو ذاك، كما لعب عملاء السلاطين دوراً لا يقل أهمية عن سلفه في عملية (تجهيل) الناس وفي إعلان الحرب -باسم الدين- على كل تفتّح في الذهن وكل تقدّم في الفكر، بزعم الخوف مما يؤدي إليه التفتّح والتقدم من كفر وإلحاد. ثم كان الاستعمار الكافر ثالثة

الأثافي في هذه المؤامرة الخطيرة على الدين، حيث حاول بكل طاقاته وإمكاناته وأجهزته ووسائل إعلامه -مستعيناً بمستشرقيه المعروفين وبمن ربّاهم على هواه من أبناء هذه المنطقة- في تشويه تلك الحقائق ومسخها وفي التضبيب المستمر على الفكر الديني النقي الأصيل.

وهكذا أثّرت هذه العوامل وكثير غيرها مما لا مجال للإطالة في بيانه آثارها المؤلمة المثيرة للتأسف، وكانت هي الأسباب المبحوث عنها في ظاهرة عزوف الجيل الطالع عن الدين كفكر وفلسفة ومنهج ووجهة نظر في الكون والحياة.

وتشاء الصدف أن أقف ذات يوم على نشرة طلابية عربية مطبوعة؛ يتصدرها مقال ذو عنوان لافت للنظر، سجّل فيه كاتبه -وهو أحد الشباب الجامعي- مجموعة من الشكوك والشبهات المرتبطة بأسس العقيدة الدينية، فأثار في نفسي ما أثار من أسى وأسف بالغين.

وأدركت فور انتهائي من قراءته أن هذه الأفكار أو التساؤلات التشكيكية المطروحة في المقال ليست رأياً شخصياً لفرد من الناس بمقدار ما هي تعبير صادق عما يعتلج في نفوس قطاع كبير من الشباب المعاصر وعما يعانيه هؤلاء من عنف عواصف الشك والارتياب.

وبادرت بحكم مسؤوليتي الدينية -بوصفي مسلماً- إلى كتابة رد أو إيضاح لما التبس فهمه أو خفي علمه على كاتب المقال، ثم دفعني الإسراع في الرد إلى نشره -موزعاً على ثلاثة أعداد- في مجلة عراقية معاصرة[١]. فكان لتلك المقالات أو الإيضاحات صدى حسن ووقع جميل في نفوس عدد غير قليل من الشباب.

ولكي تكون تلك الردود أكثر شمولاً وإيضاحاً؛ وأوفر تداولاً في أيادي القراء الكرام، كان لا بد من جمع تلك المقالات المتشتتة وإضافة ما تجب إضافته إليها من مسائل حالت العجلة دون بحثها واستعراضها بالتفصيل. وهكذا وُلد هذا الكتاب.

وكلّ أملي أن يجد فيه القرّاء الشباب -وبخاصة أولئك الذين تغلغلت فيهم الشكوك وعصفت بهم الشبهات- ما يجيب على ما في أنفسهم من تساؤلات وما يزيل حجب الأوهام ويمزق سجف الضباب، فتتجلى الحقيقة بنقائها وصفائها ونصاعتها لكل ذي عينين. والله من وراء القصد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[٢].

١٩٧٧م[٣]

---

(١) مجلة البلاغ: السنة الرابعة ١٩٧٣-١٩٧٤م: الأعداد الرابع والسادس والتاسع.

(٢) سورة ق: الآية ٣٧.

(٣) سنة كتابة هذه المقدمة.

قرأت في مجلة (الوليد) التي يصدرها الاتحاد العام لطلبة الأردن في العراق؛ وفي عددها الأول بالذات؛ مقالاً بقلم الشاب عوني عمارين أحد أعضاء أسرة تحرير المجلة، بعنوان (الإنسان بين الإيمان الملحد والإلحاد المؤمن) وهو مقال يعبّر في خلاصته عن ثورة الشك لدى الجيل العربي المعاصر.

وقد استنجد الكاتب خلال المقال مرتين بـ(رجال الدين والزملاء المؤمنين) ليوضحوا له ما خفي عليه إدراكه من جوانب الموضوع وليجيبوه على الأسئلة الحائرة التي لم يستطع بنفسه أن يتوصل إلى معرفة الجواب عليها.

وتلبية لندائه هذا رأيت نفسي مدفوعاً لكتابة هذه السطور للإجابة على تساؤلاته وتوضيح ما لم يتضح له من مسائل الدين ومفاهيم الإسلام، عسى أن يجد فيها الأخ الكاتب ومن كان على شاكلته من طلاب الحقيقة والباحثين عنها ما يزيل الغموض ويلقي الضوء ويبدد الضباب. والله ولي التوفيق.

لقد تحدث الكاتب في مطلع مقاله عمّا سمّاه (التقاليد البالية عند شعبنا)، تلك التقاليد التي أصبحت (عقيدة راسخة عند كثيرين منهم)، وذكر أنه بالنظر لواقع مجتمعنا وتقاليد شعبنا الراسخة قد نرى

أننا لن نستطيع وحدنا أن نأخذ على عاتقنا محوها، وبالتالي نعترف بوجودها الحقيقي الوهمي ونترك للأيام أن تأخذ على كاهلها القيام بهذه المسؤولية، وهذا في نظري جبن وضعف وهروب من المسؤولية.

ومع أن السكوت عن هذه التقاليد -في رأي الكاتب- جبن وضعف وهروب من المسؤولية؛ فإنه لا مناص منه في نظره؛ لأن الثائر على هذه المعتقدات (سيكون الضحية الأولى على هذا الدرب) على حدِّ تعبيره، على الرغم من أن تلك المعتقدات في نظر العقل والتفكير العلمي خرافة لا بد من رفضها -كما يرى الكاتب- .ولذلك فلا بد من سكوت الجيل عن هذه الخرافة أو الخرافات لأنه لا يريد أن يكون الضحية الأولى.

ثم يبحث بعد ذلك (مدى تقبلنا لفكرة الدين أو رفضها). وحيث إن الدين كما يقول الأخ عمارين: (يشكل ظاهرة هامة وأساسية في بلاد الشرق عامة)، فإن النقد عليه أو مسّه بأي شكل من الأشكال قضية يصعب على المجتمع العربي تقبّلها، (وخصوصاً في مرحلتنا الراهنة بالذات). و(أما في الغرب فالمجال متاح لكثير من الفلاسفة والمفكرين في أن يتفهموا الدين ويخرجوا بتحليلات ونتائج تنشر على الملأ).

وما أدري ماذا يعني الكاتب بتفريقه بين موقف الفلاسفة والمفكرين الشرقيين والغربيين من الدين؟.

وما أدري أيضاً ماذا يعني بتفهم الغربيين للدين وخروجهم بتحليلات ونتائج لا يستطيع الشرقي التوصل إليها؟.

وحتى لو كان غرضه من (تفهّم الدين) لدى الفلاسفة والمفكرين الغربيين و(الخروج بتحليلات ونتائج) هو إنكار الأديان وإنكار أسسها التي تقوم عليها -كما لعله المقصود من تلميحات الكاتب- فلماذا هذا التفريق؟ خصوصاً ونحن نرى في بعض الأسواق العربية عدداً من الكتب المكرسة لإنكار الله والدين، وهي مطبوعة ومنتشرة حتى (في مرحلتنا الراهنة بالذات)؛ ومع كل (الظروف الدقيقة التي تمرُّ بها أمتنا الآن).

وحسبنا مثلاً صريحاً على إتاحة المجال في مجتمعنا العربي لحرية القول: أن يقول عمارين نفسه بكل صراحة: (إن إيماننا بالإله هو ارتباط عاطفي ناتج عن البيئة والبيت)، ولم يقل بأنه إيمان قائم على الدليل العقلي أو القناعة الوجدانية المنبعثة من المنطق والبرهان. ومع ذلك فلم يمنعه أحد من ذلك ولم يكن هو (الضحية الأولى على هذا الدرب).

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على أن تفريقه بين المجتمع الغربي الحر ومجتمعنا الخرافي القاسي غير وارد أبداً.

وبعد أن ينتهي الكاتب من هذه المقدمات يبدأ ببحث صميم المشكلة ويتغلغل إلى أعماق جذورها، ولكنه وهو يريد التغلغل العميق يغلف ذلك كلّه بمجموعة من التساؤلات يقول بأنها (أخذت تراود أفكار بعض المتمردين على الإله وعلى أديانه العديدة)، وهي تساؤلات يرى الأخ عمارين أنها (لا تتناول طبيعة الذات الإلهية ووجودها أو عدمه، وعبادتها أو الكفر بها، بقدر ما تتناول صفات هذه الذات وقدراتها)!!.

ونلخص -فيما يأتي- هذه الأسئلة واحداً واحدا، ونردف كل سؤال منها بما يخطر في الذهن من جواب وتوضيح.

السؤال الأول:

(إذا كان الإله غفوراً رحيماً محباً لأبنائه بني البشر فلِمَ إذن خلق الشر)، (وإذا كان الإله قادراً على كلّ شيء فلِمَ لا يخلق الخير بشكل مطلق... نتلمسه ونحياه ونعرفه دون وجود الشر ألا يستطيع؟).

الجواب:

كان الواجب على الكاتب -أداءً لحق البحث الموضوعي- وهو يسرد هذه الأسئلة أن يحدد معنى (الشر) الذي نسب إلى الله تعالى خلقه وإيجاده وتمنى أن يمحو الله وجوده، فهل هو جسم من الأجسام الجمادية، أو فصيلة من فصائل الحيوانات، أو نوع معين من أنواع المخلوقات؟.

إن الشر في واقع معناه -أيها الأخ - هو تلك الأفعال السيئة التي تصدر منا نتيجة سيرنا وراء نوازع النفس ورضوخنا لدوافع الشهوة الكامنة في أعماقنا، بعيداً عن تحكيم العقل وتغليب المنطق والتفكير في المحاسن والمساوئ.

ومن هنا، فإن الله تعالى لم يخلق الشر ولا يصح أن يُنسب إليه بأي وجه من الوجوه، وإنما خلق الإنسان وأودع فيه من الجوارح ومن الطاقات ومن الغرائز ومن الإمكانات ما يستطيع أن يستعملها في

خير أو يستهلكها في شر. وحتى لا يبقى الإنسان مغفلاً غير قادر على التمييز بين الخير والشر، أرسل الله إليه الرسل وأنزل الشرائع والكتب وهداه النجدين وترك له حرية التصرف والاختيار ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[1].

وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[2]. والفتنة -هنا- هي الاختبار والامتحان بعد التحذير والتنبيه ليعرف الصادق من الكاذب والزاعم من المعتقد والمطيع من العاصي، بل لا معنى لهذا الاختبار لولا الحرية والاختيار.

إن صانع السكين أو الدواء السام لا تجوز مؤاخذته وليس من المنطق أن يلام في صنعه؛ لأنه عندما صنع ذلك حذّر الناس من أخطاره وأضراره لو أُسيء استعماله، ثم كان القانون مؤكداً على منع استعمالها في غير مواردهما، ورتّب على ذلك من العقوبات ما يردع من يريد إساءة الاستعمال ووضع الأشياء في غير مواضعها الطبيعية. وإذن، فهل يصح توجيه اللوم إليه أو أن يقال له: لماذا فعلت ذلك؟.

(١) سورة الكهف: الآية ٢٩.

(٢) سورة العنكبوت: الآيتان ٢-٣.

السؤال الثاني:

(جاء في الكتب السماوية أن الإله قد حدّد للإنسان نهايته، وحكم عليه مسبقاً وقبل ولادته بالجنة أو الجحيم، إذن فسلوكه طريق الخير أو الشر مقدّر عليه ولا ذنب له به)، (فلو فرضنا أن الإله قد حكم عليَّ بالجحيم فهنا سأكون أمام أحد احتمالين): فإما (أن يكون الإله قد حكم مسبقاً على عقلي أن يقودني في طريق الشر وبالتالي إلى الجحيم كي ينفّذ مشيئته، وهنا لن يكون الخطأ خطئي). وأما (أن يترك الإله لعقلي حرية التفكير)؛ فإن أساء عقلي توجيهي كنت أنا الذي (أقود نفسي لنار جهنم)، وإن قادني عقلي إلى السير في الطريق الصحيح فهل سأدخل (الفردوس رغماً عن مشيئة الإله وإرادته، أم أن كهذا الإله سينقض مشيئته الأولى ويتراجع عن الحكم الذي أصدرهُ عليَّ ويدخلني فسيح جنانه؟).

الجواب:

لا بد لي قبل الدخول في صميم الجواب أن أهمس في أذن الأخ عمارين أنه لم يكن المبدع لهذه التساؤلات ولا الأول بين المتسائلين، وإنما هو يردد في هذه الجمل أصداء أفكار الدكتور صادق العظم الذي كان قد زعم بأن الله قد قدَّر (منذ الأزل من هم أصحاب الجنة

ومن هم أصحاب النار)[١]، بل هو متأثر حتى بألفاظ الدكتور العظم وتعابيره؛ وبخاصة كلمة (المشيئة) التي استعملها العظم مئات المرات خلال فصل واحد من فصول كتابه. كما لا بد لي من المصارحة بأنه ليس في القرآن الكريم -وهو سيد الكتب السماوية- ما يدل على هذا التقدير المحتم على الإنسان، وما أدري كيف سوّغ الكاتب لنفسه أن ينسب إلى الكتب السماوية ما لم يرد فيها مطلقاً؟.

وأورد فيما يأتي مقتطفات ملخصة مما كتبناه في الرد على صادق العظم مما بحثنا فيه موضوع (العدل الإلهي) ومسألة (القضاء والقدر) و(الهدى والضلال)[٢]، عسى أن يجد فيها الأخ عوني ما يبدد شكّه ويزيل شبهته:

إن الإيمان بالله تعالى -خالقاً ومنشئاً- وبكونه صاحب الحاكمية الواقعية بكل أبعادها والحاكمية القانونية بكل سلطاتها وأنه المثيب والمعاقب والمعيد والمحاسب، وهو ما ذهبت إليه (الكتب السماوية) التي يكرر ذكرها الكاتب. إن الإيمان بكل ذلك يجرنا -بداهة- إلى الإيمان بأن هذا الحاكم الذي تتجمع لديه سلطات الحاكمية الواقعية

---

(١) نقد الفكر الديني: ١٢٠و ١٢٤.

(٢) هوامش على كتاب نقد الفكر الديني: ٧٠ -٨٨، الطبعة الرابعة بيروت ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

والقانونية وشؤون الإثابة والمعاقبة، لا بد أن يكون نزيهاً عادلاً وبمنتهى درجات النزاهة والعدل المطلق، لكي يختار الإنسان -بكل رضا وطمأنينة- طريق الإطاعة والامتثال على ما فيها من كبح لجماح الشهوة وحدٍّ من رغبات النفس، معتمداً على عدالة هذا الحاكم في حكمه وفي تقرير التعويض عن ذلك. ولولا الإيمان بعدل هذا الحاكم ونزاهته لما وجد الإنسان في نفسه باعثاً على مخالفة الهوى ودافعاً إلى تنفيذ الأوامر واجتناب المحرمات.

وإذن فالعدل لازم ضروري من لوازم الإيمان بالله تعالى، ولا يحتاج إثباته إلى استشهاد بنص أو رجوع إلى دليل لفظي في كتاب أو سُنة.

ولكي تكون الفكرة أكثر جلاءً ووضوحاً نقول:

إننا نؤمن -بعد إيماننا بالله تعالى نزولاً على حكم العقل- بقاعدة أساسية كبرى خلاصتها: أن الله تعالى لا يفعل إلا الفعل الحسن، بل إن من المستحيل عليه أن يفعل أي فعل قبيح، لأنه جلّ وعلا يعلم بقبحه، وليس لديه الداعي إلى فعله. وإذا كان الإنسان قد يفعل القبائح بدافع من حاجته إليها أو جهله بقبحها أو وجود مصلحة شخصية له فيها، فإن الله تعالى لن يفعلها، لأنه المستغني عن كلّ شيء والعالم بكلّ شيء وغير المحتاج لأي شيء.

وإننا نؤمن كذلك -تفريعاً على الأصل السابق ونزولاً على حكم العقل أيضاً- بأنه تعالى لا يفعل شيئاً إلا لغرض وفائدة ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا﴾ (١)، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (٢)، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ (٣)، والعبث المنفي في الآية هو فعل الشيء بلا غرض؛ وفعل الشيء بلا غرض قبيح من الحكيم، وإذن ففعل القبائح -كما أسلفنا- مستحيل على الله عزّ وجلّ.

ولما كان الفعل الإلهي منزّهاً من العبث واللعب، فلا بد لنا أن نؤمن بأنه تعالى يريد طاعة العباد ويكره معاصيهم:

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ (٤).

﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (٥).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (٦).

---

(١) سورة ص: الآية ٢٧.

(٢) سورة الدخان: الآية ٣٨.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١١٥.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٧.

(٥) سورة الزمر: الآية ٧.

(٦) سورة التوبة: الآية ٩٦.

وليس تقرير هذه الحقيقة محتاجاً إلى دليل لفظي، بل يكفينا فيه أنه جلّ وعلا قد أمر الناس بالطاعة -ولا يصح أن يأمر إلا بما يريد-، ونهى عن المعصية -ولا يجوز أن ينهى إلا عما يكره-، بل لا يصح في العقل أن يأمر بما لا يريد وينهى عما لا يكره.

وهذا في النظرة الموضوعية الفاحصة من أوضح الواضحات.

ولكن بعض المتكلمين المتنطعين -وتابعهم أخيراً بعض (العلمانيين!)- قد امتنعوا من التسليم بذلك، وذهبوا إلى أن كلّ الطاعات والمعاصي التي يفعلها الناس -كلّ الناس- إنما هي من عمل الله تعالى وقد وقعت بإرادته الذاتية الخاصة. وكان دليلهم على ذلك أمرين:

الأول: إن الله تعالى لو كان مريداً للطاعة -كما أسلفنا- فلا بد أن تتحقق إرادته على كلّ حال وإن أراد العبد مخالفته؛ لأن وقوع المعصية كما أراد العبد خلافاً لإرادة الله معناها انهزام الإرادة الإلهية وتغلب غيرها عليها، وهذا غير ممكن وغير معقول، وإذن فالله تعالى لا يريد الطاعة دائما ولا يقع منها إلا ما يريد، و(إن الله يأمر أحياناً بشيء بينما يكون قد شاء تحقيق شيء آخر)[1] كما يزعم صادق العظم وأشباهه.

---

(١) نقد الفكر الديني: ١١٩.

وخلاصة الرد على هذه الشبهة:

إن الله تعالى يريد الطاعة قطعاً، ولكنه لا يفرضها على عباده فرضاً، وإنما يريدها صادرة من العبد بمحض اختياره ورغبته وإذعانه، وهذا إنما يتحقق بإرادة المكلف وحده، ومن دون أن يرتبط بإرادة الله تعالى، كما تأتي الإشارة إليه.

الثاني: إن كلّ ما علم الله وقوعه لا بد أن يقع حتماً، وكلّ ما علم عدمه امتنع. فإذا علم الله تعالى عدم صدور الطاعة من إنسان ما استحال على هذا الإنسان فعلها، لأنه يصبح مريداً لما يستحيل وجوده، وحيث إن علم الله محيط بكل شيء، فإن أفعال العباد كلّها ستقع كما علمها الله تعالى سواء أراد العباد ذلك أم لم يريدوه، وليس لهم أي اختيار فيه من طاعة أو معصية.

وملخص الجواب على هذا الاعتراض: إن علم الله جلّ وعلا إنما هو عبارة عن انكشاف الواقع أمامه على حقيقته ووضوحه لديه على طبيعته، ولهذا لم يكن إخباره تعالى عن كفر أبي لهب -مثلاً- وخلوده في العذاب إلا تسجيلاً لما انكشف له من عدم إقرار هذا الرجل برسالة الإسلام وإصراره على الكفر إلى آخر عمره، وليس معناه أن العلم الإلهي قد كان السبب في عدم إيمان أبي لهب وفي بقائه على الكفر والضلال إلى حين موته.

وتقريباً لهذه الفكرة إلى الأذهان نضرب المثل على ذلك بشبه دنيوي في الطبيب الذي قد يفحص مريضاً من المرضى فلا يجد أملاً في شفائه فيخبر بموته لما يعلم من شدة المرض وعنفه، وقد يصف لمن حوله ما سيعرض لهذا المريض من آلام وتغيرات قبل وفاته، لما يعلم من تطورات المرض ومضاعفاته، فهل يُعد قول الطبيب وعلمه هو السبب في موت المريض؟ أم أن ذلك القول والعلم إنما هو من باب انكشاف الواقع لدى الطبيب ووضوح الأمر عنده.

والظاهر أن قائل هذه المقالة قد التبس عليه الأمر فخلط بين علم الفاعلين وعلم غيرهم، فإن الفاعل كالمهندس أو المؤلف أو الشاعر لا بد أن يمهد لفعله أولاً بتصور الموضوع ورسم خطة العمل والتنفيذ في ذهنه، فيكون التصميم الهندسي أو الكتاب أو القصيدة بعد التنفيذ والانتهاء معلولاً للعلم الذهني السابق.

ولكن العلم بالواقعيات -ومنه علم الله تعالى بأفعال عباده- على خلاف ذلك؛ ولا يكون العلم بها إلا بمحض انكشافها ومعرفتها على حالتها التي ستكون، وليس في هذا الانكشاف أي معنى من معاني العلّية والسببية في الوقوع.

وبالنظر إلى أن هاتين الشبهتين فرعان من فروع المسألة (الجبرية) الكبرى، فإن من واجب البحث علينا أن نلقي بعض الضوء على جذور هذه المسألة بالذات، لتكون حقائق الموضوع أجلى لدى جميع القراء.

إن منشأ قصة (الجبر) سياسي بحت أُريد به تصحيح تصرفات بعض الحكام الطغاة الخارجين على تعاليم الدين، وخلق الأعذار غير الاختيارية لهم تبريراً لأعمالهم المنافية لأحكام الإسلام، ومع ذلك فإن الموضوع قد تطور وتشعّب حتى أصبح مسألة رئيسة من مسائل علم الكلام، وقضية معقدة من قضايا الفكر الديني.

وكان أساس فكرة (الجبر) أو شبهته ما ذهب إليه بعض المتكلمين من أن أفعال الناس -كلّ الناس- لم تقع بمحض إرادتهم واختيارهم، وإنما وقعت بفعل الله تعالى وإرادته، وليس للإنسان أي ارتباط بها إلا كونه معّرضاً لها ومحلاً لتحقيقها. وقد أُطلق على هذا الرأي اسم (الجبر) لأن نتيجته كون الإنسان (مجبوراً) على فعل الطاعة والمعصية ومكرهاً على القيام بذلك سواء أراد أو لم يرد.

واستند هؤلاء القائلون بالجبر -لتصويب ما زعموه- على ظاهر بعض الآيات القرآنية التي قد يستشعر منها هذا المعنى، مثل قوله

تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾[(١)]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾[(٣)]، وهي الآيات التي ظنوا أن إطلاقها وتعميمها يشمل كلّ أعمال الإنسان وأفعاله وتصرفاته.

والحقيقة أنه ليس لدينا في النصوص الإسلامية الأصيلة أي دليل على صحة هذه الفكرة، بل إن الأدلة كلّها -عقلية ونقلية- دالة أوضح الدلالة على اختيار الإنسان في أفعاله، ونستعرض فيما يأتي بعضاً من هذه الأدلة لزيادة الإيضاح:

١- الفرق بين العمل الاختياري والاضطراري:

من البديهي أننا نجد فرقاً جلياً بين صدور الفعل من الإنسان بقصد إليه ورغبة فيه، وبين ما يقع منه بدون قصد إليه مطلقاً. فارتعاش اليد وحركتها- مثلاً -ربما يكون مرضياً لا يستطيع الإنسان السيطرة عليه فيحس بأنه خارج اختياره واستطاعته، وربما يكون اختيارياً يتحكم فيه الإنسان ويوقفه متى شاء.

---

(١) سورة الإنسان: الآية ٣٠.

(٢) سورة الصافات: الآية ٩٦.

(٣) سورة النساء: الآية ٧٨.

وهكذا الأمر في الأفعال بشكل عام وفي الإحساس بالفرق الواضح بين ما يقع منها بالاختيار وغيره.

فإذا كانت أفعالنا كلّها -حسب الزعم- مخلوقة من قبل الله تعالى وليس لنا فيها أي اختيار، فلماذا نحس بالفرق الكبير بين الاختيارية منها والاضطرارية؟!.

٢- صراحة القرآن الكريم في الاختيار:

لعل من أبرز أدلة الاختيار الذي نحن بصدد بيانه: ذلك التأكيد القرآني على نسبة العمل إلى الإنسان والتصريح باختياره الكامل وإضافة الفعل إليه على وجه مطلق آبٍ عن الحمل والتأويل:

﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾[(١)].

﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾[(٢)].

إلى كثير من أمثال هذه الآيات الشريفة وكلّها نص قاطع على نسبة الفعل إلى العبد بمحض اختياره وعدم وقوعه إلا بمشيئته وإرادته.

---

(١) سورة الطور: الآية ٢١.

(٢) سورة النساء: الآية ١٢٣.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[1]، فلا علاقة له بمسألة الجبر مطلقاً، وإنما يعني أن خالق الإنسان لم ينعزل عنه بعد إيجاده؛ وأن بقاء الأشياء واستمرارها في الوجود محتاج إلى المؤثر في كلّ آن، وليس الله تعالى بالنسبة إلى مخلوقاته من قبيل البنّاء الذي يبني البيت ويقيم جدرانه، ثم يستغني البيت عن بانيه ويستمر وجوده وإن مات صانعه؛ أو مثل الكتاب يحتاج إلى كاتبه في حدوثه ثم يستغني عنه في مرحلة بقائه واستمراره. بل إن خالق الكون جلّ وعلا بالنسبة إلى مخلوقاته من قبيل الكهرباء في المصباح، حيث لا يوجد إلا حين تمده هذه الطاقة بتيارها، ولا يزال يفتقر في بقاء وجوده إلى مدد هذه القوة في كلّ حين، فإذا انفصلت أسلاكه عن مصدر الطاقة في آن ما انعدم الضوء في ذلك الآن. وهكذا تستمد جميع الكائنات وجودها من مبدعها الأول حدوثاً وبقاءً وهي مفتقرة إلى عونه ومدده في كلّ وقت وحين.

وبذلك يتضح إن الإيمان والكفر -وكلّ آثارهما الخارجية- وإن كانا صادرين عن مشيئة العبد واختياره، فإن هذا العبد بحاجة مباشرة إلى مشيئة الله تعالى بإفاضة القدرة والحياة وسائر المبادئ عليه فلا يشاء فعلاً من الأفعال -طاعة أو معصية- إلا أن يشاء الله له استمرار القدرة والوجود.

(١) سورة الإنسان: الآية ٣٠.

٣- العقاب دليل الاختيار:

إن العقاب الإلهي لفاعل المعصية - كما ورد في القرآن الكريم- دليل صريح على اختيار الإنسان في فعله:

﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [(١)].

﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [(٢)].

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [(٣)].

أما أن يكون الله تعالى هو الموجد للفعل في عبده ثم المعاقب له عليه فذلك مستحيل كلّ الاستحالة، لأنه ظلم صارخ ننزّه الله تعالى عنه كما نزّه نفسه.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [(٤)]، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [(٥)]، ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [(٦)].

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦٥.

(٢) سورة القصص: الآية ٨٤.

(٣) سورة السجدة: الآية ١٤.

(٤) سورة فصلت: الآية ١٤٦.

(٥) سورة آل عمران: الآية ١٨٢.

(٦) سورة ق: الآية ٢٩.

٤- الظلم قبيح:

لو لم يكن الإنسان مختاراً في فعله وقادراً عليه وموجداً له بمحض إرادته، لكان الله أظلم الظالمين؛ لأن عقاب فاعل المعصية حتمي، وحيث إن المعصية -حسب الزعم- لم تكن باختيار الإنسان فإن عقابه سيكون من أفظع ضروب الظلم.

ونفى بعض المتكلمين قبح الظلم؛ مستدلاً على ذلك بأن الأفعال ليست لها قيم ذاتية يصح وصفها بالحسن أو القبح، بل إن الحسن والقبح في أفعال العباد مستفاد من الشرع فما نهى عنه الشرع فهو قبيح، وما أمر به فهو حسن، ولو عاد الشرع إلى ما نهى عنه فأمر به أو إلى ما أمر به فنهى عنه انقلب القبيح حسناً والحسن قبيحاً.

وإذا كان حسن الأفعال وقبحها مستفاداً من الشرع دون العقل -حسب الزعم- فإن فعل الله تعالى لا يحكم عليه بحسن أو قبح لأنه فوق الشرع والتكليف، وتكون النتيجة أن كلّ ما يفعله الله -وإن انطوى على الظلم- حسن وجميل وأن العقل قاصر عن الحكم بقبح صدور الظلم من الله جلّ شأنه.

ورفض العدليون الإسلاميون ذلك وقالوا: إن للأفعال قيماً ذاتية عند العقل مع غض النظر عن حكم الشرع، فمنها ما هو حسن في

نفسه، ومنها ما هو قبيح في نفسه، ومنها ما ليس له أحد هذين الوصفين، والشرع المقدس لا يأمر إلا بما هو حسن ولا ينهي إلا عما هو قبيح، فالصدق مثلاً حسن في نفسه ولحسنه أمر الله تعالى به، لا أنه صار حسناً بعد أمر الله به، والكذب في نفسه قبيح ولذلك نهى الله عنه، لا أنه قبح بعد النهي عنه.

ودليلنا على ذلك أن غير الملتزمين بالدين -على اختلاف فصائلهم- يصفون الصدق بالحسن وينعتون الكذب بالقبح، من غير أن يكون للحكم الشرعي أي أثر في هذا التحسين والتقبيح.

ومنه يظهر أن الحسن والقبح الذاتيين عقليان قبل أن يكونا شرعيين، وأن العدل حسن بما هو عدل والظلم قبيح لأنه ظلم، من دون أن يكون لتحسين هذا وتقبيح ذاك علاقة بالنص الشرعي والحكم الديني.

وإذن، فيجب أن يكون الله تعالى عادلاً بحكم العقل لأن العدل حسن، ويستحيل أن يكون ظالماً بحكم العقل أيضاً لأنه قبيح.

وأما ألفاظ (القضاء) و(القدر) و(الهدى) و(الضلال) مما تمسك به بعض الكتّاب دليلاً على الجبر الإلهي للإنسان، فإن الفهم السليم لها بعد استعراضها بمعانيها القرآنية يتلخص بما يأتي:

القضاء = الإيجاب والحكم.

القدر = البيان والعلم.

الهدى = الثواب.

الضلال = العقاب.

وحيث إن البحث في هذه الجوانب بحاجة إلى مجال طويل لا تتسع له هذه الصفحات، فإننا نحيل الراغب في التفاصيل على كتابنا (العدل الإلهي بين الجبر والاختيار) -وهو مطبوع أكثر من مرة- فلا نكرر ولا نعيد.

وخلاصة القول: إن كلّ أدلة القرآن والعقل صريحة في اختيار الإنسان في فعله، وحريته في سائر تصرفاته بلا جبر ولا إكراه، وإن كلّ ما أثير من شبهات بشأن الجبر لن تقوى على الثبوت أمام تلك الأدلة الصريحة والنصوص القاطعة. وصدق الله العلي العظيم حيث قال: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[١].

---

(١) سورة الشمس: الآيات ٧-١٠.

السؤال الثالث:

(ما السبب في تعدد الأديان السماوية إذا كانت جميعها تحمل في طياتها نفس المعاني والأفكار؟).

ويجيب الكاتب على هذا السؤال بما خلاصته:

(إن الإنسان والمجتمعات والشعوب جميعها في تطور فكري وحضاري مستمر... ومن هنا تتجلى الحكمة الإلهية في أن ينزل الأديان السماوية في فترات زمنية متفاوتة، مراعياً في ذلك التغيرات والتطورات التي حصلت لبني البشر خلال هذه الفترات، فبدأ بالدين اليهودي، وأتبعه بالمسيحي، ومن ثم بالدين الإسلامي وجعله خاتم الأديان).

ثم يعلّق على ذلك قائلاً:

(ولكن يبرز هنا سؤالان:

١. بعد أعوام كثيرة وأجيال طويلة من التطور الفكري للإنسان، لا شك بأن مفاهيمه ستتغير تبعاً للظروف الجديدة كما تغيرت في الظروف والعهود السابقة، فهل سيكون هناك دين رابع ليساير هذا التطور الجديد، وهذا معناه أن الإله سينقض مشيئته وينزل ديناً آخر؟.

٢. إذا كان الإله سيثبت مشيئته المذكورة بجعل الإسلام هو خاتم الأديان، فهل سيعمل الإله على وقف التطور الفكري والحضاري لدى الإنسان حتى لا تتغير مفاهيمه للأمور؟، وإذا كان هذا الدين الأخير مسايراً لجميع الظروف فلِمَ إذن لم يجعل من الدين الأول مسايراً لجميع الظروف؟).

الجواب:

إن سؤال الكاتب عن (السبب في تعدد الأديان)، منطقي جداً ومن حق من يجهل السبب أن يبقى السؤال متردداً في ذهنه.

وإن حديثه عن سببية التطور الفكري والحضاري المستمر في تعدد الأديان السماوية منطقي أيضاً وصحيح إلى أبعد حدود الصحة، وبذلك نجا الكاتب من السقوط في الغلط الشنيع الذي وقع فيه الدكتور جورج حنّا عندما زعم أن هذه الأديان (متباينة ومتعاكسة ومتناقضة في كثير من الأحيان والنواحي)[١]، ولم يشر إلى مصدر واحد يصحح به زعمه الخطير!!.

ومع ذلك فإن الأخ عمارين قد أخطأ في جعل الدين الموسوي (اليهودي) بدء تلك الأديان وأولها، وكأنه كان غافلاً أثناء كتابة

(١) قصة الإنسان: ٧٤.

مقاله عن وجود شرائع سماوية سبقت الديانة الموسوية بكثير، وقد ذكرتها التوراة نفسها وتحدثت عنها كتب التاريخ والآثار؛ وإن لم تصل إلينا نصوصها وأنباؤها بالتفصيل المطلوب.

ولما كان العقل البشري والفكر الإنساني في نمو دائم وتطور مستمر، فإن الشرائع السماوية قد تدرجت في مسايرة هذا العقل بمقدار تدرجه في النمو والتطور، شأنها في ذلك شأن المعلومات التي نزود الطفل بها في ضوء قابلياته الذهنية والعقلية، حيث نبدأ معه بالمعلومات السطحية المبسطة؛ ثم نتدرج فيها شيئاً فشيئاً حتى نصل بها عند تمام نضجه الذهني إلى أعقد النظريات والأفكار.

هذا مضافاً إلى أن الأحكام الشرعية منوطة ومرتبطة بالمصالح، والمصالح كثيراً ما تتغير بتغير العصور وتختلف باختلاف أجيال المكلفين، وربما كان في الحكم المعيّن مصلحة لقوم في زمنٍ ما فيؤمر به، ثم يكون الحكم نفسه بلا مصلحة لقوم آخرين أو في زمن ثانٍ فيُنهى عنه.

ومن مجموع هذين الأمرين يتجلى واقع الشرائع السماوية التي جاءت في كلّ زمن ولكلّ قوم بما يلائم مصالح الزمن والقوم ويتمشى مع درجة النضج الفكري لذلك العصر وأهله، حتى بلغت ذروتها في

الشريعة الإسلامية التي اختارها الله تعالى لتكون شريعة الإنسان وهو في أوج تقدمه الفكري والحضاري الكبير.

وهكذا يبدو بوضوح أننا متفقون مع الأخ عمارين -كلّ الاتفاق- في الإجابة على السؤال الأساس حول أسباب تعدد الأديان السماوية.

ولكن لنا موقف نختلف فيه مع الكاتب -كلّ الاختلاف- يتعلق بالاستدراكين الفرعيين اللذين ألحقهما بجوابه الرئيس السالف الذكر.

وخلاصة هذين الاستدراكين -كما مرّ-: إن مفاهيم الإنسان (ستتغير تبعاً للظروف الجديدة كما تغيرت في الظروف والعهود السابقة، فهل سيكون هناك دين رابع ليساير هذا التطور الجديد؟). وإذا لم يكن هناك دين جديد (فهل سيعمل الإله على وقف التطور الفكري والحضاري لدى الإنسان حتى لا تتغير مفاهيمه للأمور؟). (وإذا كان هذا الدين الأخير مسايراً لجميع الظروف فلِمَ إذن لم يجعل من الدين الأول دينا مسايراً لجميع الظروف؟).

إن أول ما يدور في ذهن القارئ المسلم وهو يمعن النظر في هذه التساؤلات شعوره بفظاعة الجدب -وليس النقص- الذي يعانيه الشباب المعاصر في ثقافتهم ومعارفهم الدينية، ذلك الجدب الذي كان -وما زال- السبب الأول والأخير في توجيه مثل هذه الأسئلة المهلهلة وتغلغل مثل هذه الشبهات الواهية.

ولعلّ الكاتب قد أحسَّ بمدى الوهن الذي يغمر شكوكه العابرة التي قلَّد فيها -وبنفس الألفاظ في بعض الأحيان- أستاذه الدكتور صادق العظم، فلم يجد بداً من أن يقول في ثنايا حديثه: (لا أظن أن رجال الدين والزملاء المؤمنين من القراء تنقصهم الحجج)، وأرجو أن يكون صادقاً ومخلصاً في قوله هذا فيصغي للحجج ويسير على هدى الدليل.

ولئلا ننساق مع سعة الموضوع فيطول بنا الحديث، نُلخِّص إيضاح هذه الحقائق في السطور المضغوطة الآتية:

إن قياس الإسلام على ما سبقه من الديانات السماوية -كما يتكرر في كلام الكاتب- قياس مع الفارق يجب أن يبتعد عنه من يتحرى الموضوعية والدقة في الدراسة والبحث.

ويكفينا دليلاً على ذلك -في العقل- ما سبقت الإشارة إليه على لسان الكاتب نفسه من مسألة (التطور الفكري والحضاري المستمر) وأثرها في تعدد الأديان، ولذلك لم يُعد مقبولاً ولا معقولاً قياس التشريع المتأخر المعبّر عن قمة ما يحتاجه هذا التطور في مرحلة ما على السابق الذي كان معبّراً -في يومٍ ما- عن حاجة مرحلة معينة من مراحل التطور.

ويكفينا دليلاً على ذلك -في النقل- ما حدّثنا به القرآن الكريم من أن الديانات السماوية السابقة على الإسلام لم تكن موجهة إلى البشرية جمعاء وإنما كانت محليّة محددة بزمان معين ومكان معين وقوم معينين: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ)[١]، (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا)[٢]، (أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)[٣]، (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ)[٤].

أما رسالة الإسلام فقد كانت موجهة إلى الناس جميعاً من كان منهم حين البعثة ومن سيكون بعدها، ومن كان في جزيرة العرب ومن كان خارجها: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾[٥]، ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾[٦]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٧]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾[٨].

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٩.

(٢) سورة الأعراف : الآية ٧٣.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٤٦.

(٤) سورة الصف: الآية ٦.

(٥) سورة سبأ: الآية ٢٨.

(٦) سورة الأنعام: الآية ١٩.

(٧) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٨) سورة الحج: الآية٤٩.

وتكون خلاصة ذلك كله أن نوحاً مرسل إلى (قومه) وصالحاً إلى (ثمود) وموسى إلى (فرعون وملائه) وعيسى إلى (بني إسرائيل) ومحمداً إلى الناس كافة.

وإذن، فليس هناك مجال لقياس دين على دين وتشبيه كتاب بكتاب كما يحاول الكاتب تكراره، والتأكيد عليه كبديهة لا يعروها شك أو ريب.

وإن نظرة موضوعية فاحصة يلقيها الباحث المنصف المحايد على أفكار التوراة والإنجيل والقرآن ستدله بوضوح على الكتاب الأمثل منها، ونعني به الكتاب الحامل لنظام الحياة الشامل وتخطيطها الدقيق؛ والمتضمن للحلول الجذرية لمشاكل الإنسان على مرِّ القرون مهما كان عدد هذه القرون.

وأمرٌ يجب أن لا تفوتنا الإشارة إليه...

إن استعمال كلمة (ديانات) بالجمع ثم تحديد تلك الديانات برقم من الأرقام.... ثلاثة ... عشرة ... مائة... استعمال بعيد عن الدقة لمن أراد الخوض في الصميم.

إن الدين -في الحقيقة- واحد لا ثاني له، وإن الشرائع السماوية: شريعة آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وما يتخللها مما

يرتبط بأنبياء آخرين إنما هي -في واقعها- صياغة متدرجة في التكامل حسب الظروف والمصالح المكانية والزمانية والفكرية على مرِّ التاريخ، حتى بلغت قمة الكمال في هذا الدين الخاتم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [1]، ﴿قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [2].

أما ما يتصوره بعض المتصورين من منافاة (تعدد) الشرائع والكتب السماوية لـ(وحدة) الدين فقد أحسن الجواب عنه فلاسفة عصرهم إخوان الصفا، إذ قالوا في هذه المسألة ما نصه:

(إن غرض الأنبياء (عم) وواضعي النواميس الإلهية أجمع، غرض واحد وقصد واحد، وإن اختلفت شرائعهم وسنن مفترضاتهم وأزمان عباداتهم وأماكن بيوتاتهم وقرابينهم وصلواتهم، كما أن غرض الأطباء كلّه غرض واحد ومقصد واحد في حفظ الصحة الموجودة واسترجاع الصحة المفقودة، وإن اختلفت علاجاتهم في شراباتهم وأدويتهم بحسب اختلاف الأمراض العارضة للأبدان في الأوقات المختلفة والعادات

---

(١) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٦١.

المتغايرة والأسباب المفننة من الأهوية والبلدان. وذلك أن غرض الأطباء كلّهم هو اكتساب الصحة للمريض وحفظها على الأصحاء، ودفع الأمراض وإزالتها عن المرضى، فهكذا غرض الأنبياء عليهم السلام... وذلك أنهم أطباء النفوس، وغرضهم هو نجاة النفوس الغريقة)(١).

وهكذا بلغت تلك الصياغة التكاملية المتدرجة أوجها بشريعة الإسلام التي ختم الله بها الشرائع السماوية كافة.

وهذا الدين الخاتم -هو القمة في الكمال- لن يستطيع أي تطور أن يبرز نقصاً فيه أو خروجاً على حقائقه ومبانيه، مهما استمر التطور، وأياً بلغ من الاستمرار.

ونحن في هذه الفقرة مستعدون للتحدي ولإقامة البرهان على ما نقول. على أن يُعلم بجلاء بأننا لا نعني بهذا الدين الخاتم تلك الإضافات والشروح التي ألصقت بالإسلام بمهارة تارة وبغباء أخرى، تحت تأثير ظروف معينة أو بوحي من حكّام جائرين، ثم أضفي عليها من القدسية والشأن والأهمية -جهلاً وعمداً- ما جعلها تبدو وكأنها جزء لا يتجزأ من الشريعة والفكر الديني الأصيل.

---

(١) رسائل إخوان الصفا: ٢/١٤١.

وعندما يتضح ما سلف يبدو أننا في غنى عن التساؤل الذي طرحه الكاتب عما إذا (سيعمل الإله على وقف التطور الفكري والحضاري لدى الإنسان حتى لا تتغير مفاهيمه للأمور)!؛ لأن الإسلام قادر على استيعاب ذلك التطور الفكري والحضاري للإنسان.

وليس في ذلك أي عجب أو استغراب!.

ولن يكون معناه ما يهمس به بعض المشككين من أن نتيجة ذلك هو الجمود الذي لا يقبل الحركة مطلقاً.

وحسبنا دليلاً على نفي تهمة (الجمود) فيما قلناه أن نقرأ ما تطرحه إحدى فرضيات القرن العشرين من أن العالم سيصل في مستقبله إلى مرحلة معينة هي نهاية مراحل الصراع، وحينذاك تصبح البشرية بأفرادها وأفكارها وسلوكها وكلّ شؤونها خالية من كلّ أثر من آثار الصراع والتناقضات، ثم تكون هذه النتيجة ثابتة لا تقبل التبدُّل والتغيُّر مهما نسلت القرون ومهما تطور الفكر الحضاري للإنسان ومهما استمرت بالإنسان الحياة على سطح هذه الكرة!.

مع أن كثيراً من المثقفين في العالم قد قرأ هذه الفرضية وتأثر بها -ومنهم الكاتب نفسه- فإننا لم نجد منهم متسائلاً يقول: هل سيقف التطور الفكري والحضاري لدى الإنسان حتى لا تتغير مفاهيمه للأمور؟!

ويكون معنى ذلك في عُرف المؤمنين بهذه الفرضية: أن لا مانع من خضوع البشرية كلّها لنظام ثابت لا يتغير ولا يتبدل، بل إن من الواجب لديهم السعي الحثيث في سبيل التطبيق الصارم لهذه الفرضية على كلّ حال.

وإذا سوّغ هؤلاء لأنفسهم الإيمان بمثل ذلك؛ فلماذا الإنكار على الفكر الديني إذا ما بشَّر بالدين الثابت الذي لا يتغير ولا يتبدل؟ وهل من المقبول منطقياً أن تعلو صيحات الإنكار على المؤمنين بالدين إذا ما أقروا بخلود العقيدة وثبوتها ثم لا تعلو تلك الصيحات على الآخرين؟.

إنها مسألة فيها أكثر من علامة استفهام.

وكلمة لا بد من تسجيلها في ختام الإجابة عن هذا السؤال:

إننا لا نعني بالتطور الفكري والحضاري الذي لن يصطدم مع الدين هذه المظاهر المهلهلة التي يعيشها عالم اليوم بما تشتمل عليه من فجور وتحلّل وفحشاء ومدنية زائفة، وإنما نعني به تلك الاكتشافات العلمية في كلّ ميادينها الواسعة بما تخبرنا من عظمة (المبدأ الأول) الموجد الحكيم، وبما تجلو لنا من آثار الخلق الفريد وإمارات التصميم الدقيق.

أما الفرضيات المطروحة في الساحة الآن مما أمكن تغليفها بالعلم مؤقتاً فسوف تتبخر كما تبخرت أفكار نيوتن وأشباهه ممن أشغلوا الناس بفرضياتهم فترة من الزمن، ثم دخلت متاحف التاريخ الطبيعي وكتب الآثار القديمة، لتقف عليها الأجيال المقبلة كنموذج من نماذج التخيل عند الإنسان القديم!.

السؤال الرابع:

(إن العلم قد أثبت أن الحياة مادية وليست أعمق من هذا، وأثبت أيضاً أنه لا وجود لما يسمى بالروح).

(وإنني أقف مع الأخوة المؤمنين لنردَّ على أولئك الملحدين ونقول لهم: إذا كان كلامهم صحيحاً فما الذي يحرّك هذه الأعداد الهائلة من الكتل البشرية، وإذا لم يكن هناك ما يسمى بالروح فلِمَ لا نصنع الإنسان؟).

ثم يعلّق على ذلك قائلاً:

(ولكن النقطة التي تحيّرني مع أنها لم تتحقق للآن ولكني أخاف تحقيقها في يوم قريب، لأنها إن تحققت فستقضي على جميع الحجج الواهية (كذا) التي قد تبقى لدي. وهذه النقطة هي: أن تقدم العلم المضطرد قد أثبت أن جسم الإنسان يتكون في معظمه من مواد عضوية وبعض الأملاح المعدنية... وأن المادة الأولية الحية هي مادة البروتوبلازم... فإذا استطاع العلم الذي غزا الكواكب الفضائية... أن يصنع مواد البروتوبلازم وبالنسب المطلوبة ووفّر لها الأجواء المناسبة لحياتها فهل سيكون الإنسان خالقاً للإنسان؟).

الجواب:

لقد بدأ الكاتب سؤاله بافتراض (أن العلم قد أثبت أن الحياة مادية) (أنه لا وجود لما يسمى بالروح). وليس لنا ما نعلّق به على هذا الافتراض إلا أن نقول:

إن العلم الذي يعنيه الكاتب هو العلم التجريبي المعاصر -وليس الفلسفة- كما هو واضح، وهذا العلم -كونه قائماً على التجربة والاختيار- لا يستطيع إثبات أية حقيقة غير مادية؛ أي الحقيقة التي لا تقبل الخضوع للتجربة، كما أنه لا يستطيع نفيها أو إثبات عدم وجودها أيضاً.

ولذلك فإن ما نسبه الكاتب إلى العلم من كونه قد أثبت مادية الحياة وعدم وجود الروح إنما هو تعبير إنشائي لا علاقة له بلغة العلم بمنهجها (الأكاديمي) الدقيق.

وليس للعلم -في أسوأ الفروض- إلا أن يقول بأن وجود الروح لم يثبت لديه. أما ثبوت العدم فأسلوب لا يقرّه المنهج العلمي ولا يرضى بأن يُنسب إليه في كلّ الأحوال.

هذا أولاً...

وثانياً:

إن هناك دراسات علمية معاصرة كتبها علماء معروفون صرَّحت بخلاف ما زعمه الأخ عمارين، بل أكدت عكس ذلك الزعم، كما يتجلى من بعض النصوص التي نوردها فيما يأتي:

أ- (إن المتفق عليه عموماً هو أنه لا البيئة وحدها، ولا المادة مهما كانت موائمة للحياة، ولا أي اتفاق في الظروف الكيمياوية والطبيعية قد تخلقه المصادفة، يمكنها أن تأتي بالحياة إلى الوجود).

ب- (إن مادة الحياة ليست من البساطة بمكان. فليس تخليق المادة الحية يعني تجميع وتكثيف مكونات البروتوبلازم، بل إن هناك عوامل إحيائية مساعدة تضمن للحياة نشاطها وتسلسلها، والأنزيمات ليست وحدها هي مفاتيح أسرار الحياة وكنهها).

ج- (إن التركيب الكيماوي للخلية لا يكشف لنا سرّ حياتها، لأن الحياة ليست مجرّد منظومة جامدة مثل البيت أو المصنع، وإنما هي منظومة فيها قدرة على تكرار نفسها... وفيها فطرة إرشادية تقودها من الداخل، فطرة مبثوثة في نسيجها تجدد ما يتلف منها وتستحدث ما يضيع. واللغز في هذه البصيرة المطوية في تضاعيف المادة، وليس في تركيب المادة نفسه).

د- (وبصرف النظر عن مسألة أصل الحياة التي هي بالطبع من الألغاز العلمية، قد أُفترض أن هنة ضئيلة من الحياة، بلغت من الضآلة أنها لا ترى أو تلمح بالميكروسكوب، قد أضافت إليها ذرات... فانقسمت، وكررت الأجزاء المنفصلة هذه الدورة، وبذا اتخذت أشكال الحياة ولكن لم يزعم أحد أنها اتخذت الحياة نفسها).

هـ- (التفسير العلمي للحياة بأنها نشاط كيميائي تفسير غير كاف، لأن الجسم الميت يحتوي على نفس المواد الكيميائية التي في الجسم الحي، والتراب يحتوي على نفس المقادير من الحديد والنحاس والكاربون).

و- (الحيوان ليس مجرد مجموعة من العناصر الكيميائية التي يتفاعل بعضها مع البعض الآخر كما يجري في بوتقة الاختبار مثلاً، بل هو كائن حي يتمتع بخصائص لا تتمتع بها المادة)[١].

إذن، فإن العلم لم يثبت مادية الحياة ولم يثبت عدم وجود الروح كما أرسل الكاتب ذلك إرسال المسلمات.

بل إن العلم يؤكد في كثير من نصوصه أن الحياة ليست مادية وليست شيئاً له حجم؛ أو مادة لها وزن.

---

(١) يراجع في هذه النصوص (الله بين الفطرة والدليل).

ولكن الكاتب -فيما يبدو- يتمنى لو قال العلم ذلك، فأطلق ما تمناه ونسبه إلى العلم، وإن كان العلم بريئاً من هذه المقولة كلّ البراءة.

ولعله لو عاد إلى كتب الكتّاب الماديين-والظاهر أنه لم يقرأ شيئاً منها- لوقف على نصٍ كتبه الفيلسوف المادي روجيه غارودي يقول فيه ما لفظه:

(إن المادية لا تنكر أبداً وجود الروح)[١].

وإذاكان غارودي يقول ذلك بملء فمه فكيف رضيَ الأخ عمارين لنفسه أن يحمّلها هذه المسؤولية، فيطلق ذلك الزعم الكبير، ناسباً إلى العلم أنه قد (أثبت أيضاً أنه لا وجود لما يسمى بالروح)!!.

وإنها -في الحقيقة- لمشكلة لن يُجدي فيها أي حل!.

فشابٌ متعلمٌ في بداية الطريق -كالأخ عمارين- يندفع إلى الإيمان بالمادية إلى أبعد الحدود، ثم يكتب ما يشاء وبكل حرية وصراحة، ولكنه لم يُجشِّم نفسه عناء قراءة ما كتب الماديون وما ورد في بحوثهم ودراساتهم؟!.

---

(١) النظرية المادية في المعرفة: ٣٠.

لقد حرم نفسه من لذة القراءة ومتعة الاطلاع على الأفكار (الخاصة) أو المختلفة، واتجه -على الرغم من جهله وبعدم اطلاعه- إلى الإيمان برأي معين، كما يتجه الأعمى وبدون هدى، ثم أمسك القلم ليكتب نوازع نفسه وهو لا يعرف أيّ شيء، ولينسب إلى العلم أنه قد نفى وأثبت وهو لم يقرأ من كتب العلم إلا أغلفتها البراقة وعناوينها المطنطنة.

إنها لمصيبة وأيم الحق!

بل هي (المصيبة الأعظم) التي لا علاج لها ولا دواء.

وما دام الكاتب قد تعرّض في سؤاله هذا لمسألة الحياة وإمكان إنتاجها صناعياً، فإن من ضرورة البحث أن نستعرض هذا الموضوع بشيء من التفصيل فنقول:

إن إمكان نشأة الحياة -وبصور مختلفة- من مواد غير حية، موضوع كثر فيه الأخذ والرد والنقاش منذ عهد الإغريق، وعلى وجه التحديد من ذلك اليوم الذي خُدع أرسطو فيه بمنظر ظهور الديدان في الجبن، فذهب إلى القول بـ(التولد الذاتي)[١] أي (الأصل الجمادي للأحياء) وانطلاقة الحياة من الجماد.

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية: ١٥٧.

وانطلت هذه الخديعة على عدد من الناس جيلاً بعد جيل، حتى لفَّت في ضبابها فيلسوفاً كبيراً كابن سينا ساقه النظر السطحي إلى القول بإمكان تولد حيات من الشَعَر، وعقارب من التبن، وفئران من المدر، وضفادع من المطر[١].

وجاء بعد ذلك من حاول إثبات هذه الفكرة وتأكيد صحتها مثل العالم الهولندي ليفنهوك المولود سنة ١٦٣٢م. ثم ظهر بطلان أفكار ليفنهوك ومشاهداته على يد العالم الإيطالي ريدي (١٦٢٦ - ١٦٧٩م) حينما أقام البرهان بطريقة تجريبية على زيف فكرة التولد الذاتي. وفي سنة ١٧١٠م أضيفت إلى تجربة ريدي ملاحظات جديدة للويس كوبلوت تعتمد على التسخين جاءت مؤيدة لنظرية ريدي ونتائج بحثه. ثم تصدى الباحث الإنكليزي نيدهام في سنة ١٧٤٩م لملاحظات كوبلوت بالتفنيد، كذلك قام العالم الإيطالي سبالانزاني في الفترة نفسها بإجراء عدة تجارب كانت في نتائجها مؤيدة لرأي كوبلوت.

ثم كان لويس باستير في آخر المطاف واضع الخاتمة المثيرة لذلك الجدل الطويل[٢].

---

(١) الشفاء/ الطبيعيات/ الفن الخامس: ٧٦-٧٨.

(٢) مرَّ الحديث عن التولد الذاتي ص٤٣ وما بعدها.

وهكذا انهارت أسطورة التولد الذاتي بما لا مجال فيه لأي تردد أو شك أو احتمال، وأصبحت الديدان، والميكروبات، وعمليات التخمير أدلة قاطعة على أن الحياة لا تنشأ إلا من حياة؛ وأن النطفة هي القانون العام الشامل لعالم الأحياء الواسع العظيم.

ولم يجد الماديون بعد ذلك ما يمكن أن يُطرح على الملأ العلمي سوى فكرة إمكانية (التوالد العفوي) بدلاً عن الذاتي ورأوا أن تجارب باستير لا تنفي هذه (العفوية)[١] أبداً.

ولم نعلم حتى الآن معنى هذه (العفوية)!.

أهي (الصدفة)؟ أم هي (التخيل)؟ أم هي (الأحلام) المجنحة)!!.

ولقد نسي هؤلاء أن العلم يبحث عن (قانون).

فهل (التوالد العفوي) (قانون علمي)؟. وإذا كان قانوناً علمياً فلماذا عبّروا عنه بـ(الإمكان)، والإمكان احتمال -مجرد احتمال- في الحساب لا أكثر ولا أقل.

وخلاصة القول: إن تجارب باستير قد كشفت عن انتصار عظيم للفكر الميتافيزيقي في ضوء العلم والاختبار لم يدر على بال. وإنّ ذلك

---

(١) النظرية المادية في المعرفة: ١٤٢.

إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على سلامة الفكر الديني وصحته بما يكشف العلم الحديث من أسراره وغوامضه ومجهولاته.

ثم نعود إلى ما أعلن الكاتب عن خوفه من تحققه في يوم قريب؛ مما سيقضي (على جميع الحجج الواهية) التي زعم أنها باقية لديه، ويعني بذلك قيام العلم بخلق الإنسان إذا ما صنع مواد البروتوبلازم بالنسب المطلوبة ووفّر لها الأجواء المناسبة.

ويسرُّني أن أصارحه بعدم الحاجة إلى الشعور بالخوف، وأن أمنحه الاطمئنان في هذا الموقف الذي أقلقه وحيَّره.

ولماذا كلّ هذا الخوف وهذه الحيرة؟.

لنفترض أن الإنسان قد صنع الإنسان -وفرض المحال غير محال- فما هو الناتج من ذلك؟

إن معناه -لدى من تأمّل ووعى- أن الإنسان قد رأى شيئاً مصنوعاً فصنع مثله، وذلك ليس (خلقاً) كما تخيّل الكاتب، وإنما هو عملية (تقليد) محضة يبقى الفخر فيها للخالق الأول وحده فقط؛ ومن دون أن يشاركه في الفخر أحد غيره.

إن كثيراً من شباب اليوم في البلاد النامية قام بصنع (جهاز الراديو) أو (الهاتف) أو غيرهما من الأجهزة، فهل يجد الكاتب لهم ميزة الإبداع والخلق، أم أن دورهم مقتصر على (التقليد) وحده؟.

وإن العلم الحديث قد قلّد الطبيعة في عملها للحصول على النتروجين المركب وذلك باستخدام نحو ثلاثمائة ألف قوة حصانية لإحداث أنوار كهربية ساطعة في الهواء أنتجت فضلة من النتروجين المطلوب.

وإن الطب المعاصر قد صنع للإنسان كلى وأسناناً فماذا كانت النتيجة؟

لقد رأى الأطباء كيف صمّم (الخالق) الحقيقي تلك الكلى والأسنان فعملوا مثلها محاكاةً وتقليداً، وبلا أدنى تبديل أو تغيير.

فهل يقضي هذا التقليد على (الحجج الواهية) المتبقية لدى الكاتب وأمثاله!؟.

وهل يرى عاقل من عقلاء العالم – مهما تطرّف في إلحاده– في هذا التقليد (منافسة) للخالق الأول كما يحلو للكاتب أن يُلمّح له!!؟.

وإذن، فليس في واقعة (صنع الإنسان للإنسان) لو وقعت أي دليل على الشك في الموجد الأول ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[١]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[٢]، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[٣].

ولو رجع الكاتب إلى النصوص العلمية المعاصرة التي تحدثت عن فكرة صنع الإنسان مثله لرأى كيف ينظر العالم الحقيقي إلى هذه المسألة وماذا يستنبط منها لو استطاعت البشرية فعلها؟:

يقول الأستاذ كريسي موريسون:

(لقد قال هيكل: أعطني هواء ومواد كيموية ووقتاً وأنا أصنع إنساناً. ولكنه أغفل وحدات الوراثة -الجينات- وأغفل الحياة نفسها. لقد كان عليه- لو استطاع!!- أن يجد وينظّم الذرات غير المرئية ووحدات الوراثة -الجينات- ويمنحها الحياة!، وحتى في هذه الحالة كانت النتيجة -بنسبة ملايين إلى واحد- أنه كان لا يأتي بوحش لا مثيل له)[٤].

(١) سورة السجدة: الآية ٧.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٢.

(٣) سورة النمل: الآية ٨٨.

(٤) العلم يدعو إلى الإيمان: ١٥٠.

ويقول الدكتور ألبرت ماكومب ونشستر:

(يقف العلماء اليوم على عتبة كشف جديد بالغ الأهمية، ألا وهو خلق الحياة داخل المعمل وفي أنابيب الاختبار، وقد أمكن فعلاً الوصول إلى خلق صورة من صور الحياة داخل المعمل، ولكنها صورة بدائية على درجة كبيرة من البساطة والنقص. وقد تم ذلك بمزج بعض المواد الكيموية بنسب معينة لكي تتكون منها مادة تسمى حمض ديسوكسي ريبونيوكليك (D.N.A) وهي من المواد التي لم يكن من الممكن إنتاجها من قبل إلا داخل الخلايا الحية... ونحن لا نعلم ماذا سيكون شأن ذلك الحمض الصناعي الذي حضَّره الإنسان في المعمل وكيف يكون تأثيره عندما يطعم به بروتوبلازم الخلايا الحية، هل تمتصه الخلايا؟ وهل يتَّسق مع تركيبها؟ وهل تحدث فيها نفس التأثيرات التي تُحدثها المادة العضوية الطبيعية؟. إننا لا نعرف الإجابة حتى اليوم عن هذه الأسئلة، ولا يزال مستقبل الجهود التي تبذل في هذا الميدان في كف القدر.. ولكن حتى إذا نجحت هذه الجهود فهل يزعزع ذلك من إيماننا بالله؟ إنه لا يزعزع إلا إيمان أولئك الذين لديهم إيمان سطحي.

أما من يقوم إيمانهم على أساس التفكير العميق، فإن ذلك لا يعد أكثر من خطوة جديدة في إدراك ما أبدعه الخالق الأعظم الذي خلق وحده تلك الروائع التي يعمل الناس جاهدين متكاتفين في الكشف عنها)[١].

ويقول إنجلز:

(إن تعريفنا للحياة هو بطبيعة الحال ناقص جداً، لأنه بعيد جداً عن أن يحيط بجميع الظاهرات الحية، وبالتالي مضطر إلى الاقتصار على أهم الظاهرات وأبسطها)[٢].

ويقول روسيل وولاس:

(إن نواة الخلية الحيّة ليست شيئاً كيميائياً عويص التركيب، ومن المستطاع تركيبها ثانية إذا حُلِّلت؛ ولكنها لا تكون نواة حية، إذ تكون قد فقدت بين التحليل والتركيب سراً هو سر الحياة)[٣].

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم: ١٠٦- ١٠٧.

(٢) النظرية المادية في المعرفة: ١٣٥.

(٣) أصل الأنواع –المقدمة-: ٢٧.

ويقول إسماعيل مظهر:

(إن إثبات التولد الذاتي أو نفيه لا يترتب عليه مطلقاً القول بإنكار علة أولى، لأننا لو فرضنا أن الحياة قد نشأت من اختلاط بعض العناصر الأولية مقرونة بمهيئات أُخر، فذلك لا يستوجب نفي تلك القوة المدبرة التي استطاعت بواسطتها تلك العناصر من الدور في سلسلة من التغيرات والتطورات حتى بلغت حداً عنده انبثقت فيها الحياة)[١].

ويقول جون لويس:

(إن من الخطأ الفاحش النظر إلى ظواهر الحياة الإنسانية على أنها يمكن أن تفسر كلها بلغة البيولوجيا... كما لا يمكن أن نفسر الإنسان في حدود الكيمياء فقط أو الفيزياء فقط أو الفيزيولوجيا فقط)[٢].

---

(١) أصل الأنواع – المقدمة-: ٢٨.

(٢) الإنسان والارتقاء: ٧٥.

السؤال الخامس:

(إن الأديان السماوية تُجمِع كلها على أن الإنسان الذي خُلق في العهود السابقة يحمل نفس الشكل والتركيب الذي يحمله اليوم بدون أي تغيير.. ولكن العلم وخاصة علوم الأحياء والجيولوجيا والبيوكيمياء أثبتت جميعها صحة نظرية التطور... وأثبتت أن الإنسان قبل آلاف السنين وملايين لم يكن قطعياً كما هو عليه الآن. ففي الحفريات والدراسات العلمية المستمرة وُجد أنه في أدنى طبقات الأرض يوجد هياكل لحيوانات بحرية فقط، وفي طبقة أعلى وجدت هياكل للحيوانات البحرية والبرمائية و...و... وهناك كتب كثيرة ومتوفرة في بعض المكاتب في علوم الأحياء والجيولوجيا مختصة في هذا الموضوع بالذات... فإن هذه الدراسات العلمية والنتائج المتمخضة عنها تتعارض كلياً مع ما جاء في الكتب السماوية حول طبيعة شكل وتركيب الإنسان).

الجواب:

كان من حق هذا السؤال أن أطيل الوقوف عنده وأن أطيل الحديث في الجواب عليه، بأمل وضع النقاط على الحروف وكشف الحقيقة على واقعها الأصيل المجرد من كلّ البراقع و(الرتوش).

ولكن الذي منعني من هذا التطويل بحثٌ لي في الموضوع نفسه سميته (الإنسان بين الخَلق والتطور) وقد أودعت فيه كلّ ما قيل وما يمكن أن يقال في هذا الموضوع الخطير.

ولذلك سأكتفي في هذه العجالة بتسجيل الملاحظات الآتية:

١- لم يُحسن الكاتب التعبير عن مقصوده أو لم يستطع فهم نظرية التطور كما ذهب إليها أصحابها، فجاءت عباراته حافلة بالاضطراب والفوضى الدالين على جهله التام بالنقطة الأساس في هذا الموضوع.

إنه يزعم أن الأديان السماوية تجمع على أن الإنسان الذي خُلق في العهود السابقة يحمل (نفس الشكل والتركيب الذي يحمله اليوم)... ولكن العلم أثبت صحة نظرية التطور وأثبت أن الإنسان قبل آلاف وملايين السنين لم يكن قطعياً كما هو عليه الآن.

فهل هذا التعبير أو الفهم التطوري صحيح في لغة العلم؟

وهل ادّعى داروين أو أيّ سائر على نهجه مثل ما ادّعى الكاتب من (أن الإنسان قبل آلاف وملايين السنين لم يكن كما هو عليه الآن)؟ أي أنه إنسان ذو رأسين مثلاً... أو ثلاثة أيدي... أو أربعة أرجل... أو خمسة عيون... أو ستة آذان!!.

كلا... وألف كلا...

أما أن الاستدلال على صحة (أن الإنسان لم يكن كما هو عليه الآن) بأن الحفريات قد عثرت على هياكل لحيوانات بحرية أو برمائية أو... أو...، فما علاقة ذلك بالإنسان؟.

وهل ذهبت الديانات السماوية إلى التأكيد بأن ذلك الحيوان البحري أو البرمائي هو إنسان وليس حيواناً كي يُثبت العلم خلافه؟

إن الحفريات تؤكد أن الإنسان هو هذا الإنسان من حيث الهيكل العام، وله من حيث الأساس نفس الشكل والتركيب، وليس في ذلك أي خلاف بينها وبين أي معتقد من المعتقدات الدينية أبداً.

ولذلك فما أوقع الأخ عمارين في الإشكال إنما هو جهله بحقيقة المسألة وبالنقطة الرئيسة في البحث.

إن النظرية تقول: بأن الخلية الحية الأولى في هذه الأرض قد تطورت من حال إلى حال حتى انطلق منها ذلك الإنسان الأول الذي هو بلا شك يحمل (نفس الشكل والتركيب) الأساس للإنسان الحالي.

ولو كان الكاتب قد فهم النظرية على حقيقتها لتساءل عن مدى صحة هذه النظرية في الفكر الديني، من دون أن يُورِّط نفسه في هذه التعابير المتضاربة المشوشة.

٢- قال الكاتب: (إن هذه الدراسات العلمية والنتائج المتمخضة عنها تتعارض كلياً مع ما جاء في الكتب السماوية حول طبيعة شكل وتركيب الإنسان)، أي أن الكتب السماوية تتعارض مع نظرية التطور وما ذهبت إليه في أصل الإنسان.

وهذا المعنى بالخصوص مقتبس من جورج حنّا فيما نسبه إلى الماديين من أنهم قد (أنكروا أن الإنسان قد خُلق إنساناً كما هو مكتوب في الكتب المقدسة)[1].

وواضح أن من يؤكد (التعارض الكلي) بين الدراسات العلمية وما جاءت به الكتب السماوية لابد وأن يكون مطلعاً على هذه الكتب وعارفاً بما جاء فيها كلّ المعرفة.

فهل سبق للأخ عمارين أن قرأ القرآن الكريم؟.

وهل وجد فيه بعد القراءة -لا قبلها- مثل هذا التعارض (الكلّي) المزعوم؟

(١) قصة الإنسان: ١٩٨.

وهل يصح من إنسان يعيش بين المسلمين أن ينسب إلى القرآن شيئاً قبل أن يستعير نسخة منه -من أي مسلم-، فيقف عليه وقوفاً تاماً، ولو لمجرد الإطلاع عليه إن لم يكن بقصد الاستفادة منه؟!!.

ولكي أوفّر عليه عناء القراءة والمراجعة سأسرد فيما يأتي بضعة آيات من القرآن الكريم عنيت بالحديث عن أصل الإنسان، تقيم الدليل القاطع على الجهل المطبق الذي يلف الشباب بعنف، فيحجب عنه نعمة المعرفة والاطلاع بعد نعمة التدين والإيمان.

يقول عزّ من قائل:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [١].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِن مَّاءٍ﴾ [٢].

﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [٣].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [٤].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٣٠.

(٢) سورة النور: الآية ٤٥.

(٣) سورة الحج: الآية ٥.

(٤) سورة الروم: الآية ٢٠.

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾[١].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾[٢].

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾[٣].

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾[٤].

هكذا تحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان أو عن (أصل الإنسان حسب التعبير الدارويني.

وكانت خلاصة ذلك: أن أصل الإنسان عبارة عن ماء + تراب= طين.

وهذا (الطين) تفرّعت منه (سلالة).

والإنسان بصريح الآية من تلك (السلالة) الناشئة من الطين.

وبذلك كان الله تعالى قد (بدأ) خلق الإنسان من (طين).

---

(١) سورة السجدة: الآية ٧.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ١٢.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٢.

(٤) سورة الصافات: الآية ١١.

وإذن...

فما هو (التعارض) الذي تخيله كاتب المقال بين نظرية التطور -من حيث الأساس لا التفاصيل- وبين القرآن الكريم- لولا الغفلة والجهل والتهور؟!.

وهل هناك شيء في صلب نظرية التطور غير أن الأصل من (طين)، وأن (البدء) كان منه، وأن الإنسان من (سلالة) من ذلك الطين؟.

وإذا كانت الحقائق قد تجلت بكل هذا الوضوح فماذا نقول عن هؤلاء الكتّاب الذين لا يحسنون من الكتابة إلا حمل القلم مجرداً من الوعي والإدراك والمعرفة؟!.

ولولا أني أريد الترفع بقلمي عن الإسفاف لقلت في هذا الكاتب وأمثاله ما يستحقون من النعوت!!.

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

٣- تفضّل الكاتب على قرائه فأخبرهم بوجود(كتب كثيرة ومتوفرة في بعض المكاتب في علوم الأحياء والجيولوجيا مختصة في هذا الموضوع بالذات)، وكأنه يريد أن يضفي -من طريق الإخبار عن

هذه الكتب- شيئاً من الموضوعية والعلمية على مقاله، بل كأنه يريد أن يدّعي بأنه لم يقل ما قال إلا بعد البحث والاطلاع.

وذلك زعم يكذبه كلّ سطرٍ سُطِرَ من مقاله السطحي البعيد عن أساليب البحث والاطلاع، والمنزّه عن كلّ مرجع سوى كتابَيْ أستاذيه جورج حنّا وصادق العظم فقط!!.

ولو كان قد قرأ -حقاً- ملخصاً عن نظرية التطور لانعكس ذلك على تفكيره وتعبيره وحسن تصويره للمسألة.

إن إسماعيل مظهر في مقدمة كتاب (أصل الأنواع) لداروين -وذلك مما لم يقرأه الكاتب- يقول ما نصه:

(مضى زمن طويل قبل أن يدرك سواد الناس أن داروين إنما تناول ببحثه العلمي عصر ما بعد الخلية التي هي أساس الحياة بكلّ صورها. ولكنه لم يعرض للبحث في عصر ما قبل الخلية ليعرف كيف نشأت الحياة في تلك الصورة البسيطة، ومن أين هبط ذلك السر الرهيب: سر الحياة الذي جعل من المادة الجامدة كائناً حياً)[١].

(١) أصل الأنواع: المقدمة: ٥٩.

وإن جورج حنا يعترف (أن النظرية الداروينية لا تنفي الخالق، كما أنها لا تتعرض لإثبات وجوده... نظرية داروين انطلقت من كون الحياة وجدت)[١].

وإن داروين نفسه ينفي نفياً قاطعاً أن تكون (أية أسباب وجيهة تجعل من الأفكار المتضمنة في هذا الكتاب]أي كتاب أصل الأنواع[ما يصدم الشعور الديني لأي إنسان)[٢].

فهل قرأ الكاتب كلّ ذلك؟.

كلا...

وهل قرأ ما يقوله الفكر الديني في هذا الموضوع ممثلاً بمن سبق داروين في هذه النظرية ومن علّق عليها من الفلاسفة الإسلاميين؟.

كلا...

ثم هل يعلم الكاتب أن إخوان الصفا وابن خلدون وصدر الدين الشيرازي قد جاؤوا بنظرية كاملة للتطور قبل داروين بقرون[٣]، ولم

---

(١) قصة الإنسان: ٩.

(٢) أصل الأنواع: ٧٦٧.

(٣) يراجع البحث الثاني: الإنسان بين الخلق والتطور.

يكن من فرق بينهم وبين داروين إلا أنهم انطلقوا من نظرة فلسفية بحت وانطلق هو من اختبار تجريبي ومن حفريات أثرية أوحت له بما أوحت من أفكار.

إن الكاتب لم يقرأ كتاب صاحب النظرية ولم يقرأ النقد عليها ولم يقف على وجهات النظر المختلفة في الموضوع، ولم يطلع على الكتب السماوية -وفي طليعتها القرآن الكريم-، ومع ذلك فإنه يطلب من القراء الرجوع إلى الكتب الكثيرة في علوم الأحياء والجيولوجيا ويبشرهم بأنها متوفرة في بعض المكاتب؟!!.

وأخيراً -وليس آخراً- فإن الكاتب لم يقف على نتائج التطور العظيم في علم الوراثة، تلك النتائج التي جاءت على عكس ما ذهب إليه داروين في بحوثه التطورية. فقد أصرّ داروين إصراراً كبيراً على نفي الطفرة، وعلى أن التطور إنما يحدث بالتدرج وبشكل بطيء جداً في حين أن علم الوراثة الحديث يرى أن التطور غير ممكن إلا من طريق الطفرة، والطفرة نفسها ما زالت فرضية لم يقم على صحتها دليل.

وفي الختام -ولا أريد الإطالة- أود أن أهمس في أذن الكاتب ومن كان على شاكلته ممن يطبّلون ويزمرون باسم العلم ونظرياته واكتشافاته أن يقفوا على ما يقوله الدكتور ميرايت ستانلي كونجدن

- وهو عالم طبيعي وفيلسوف معروف-:

إن (نتائج العلوم تقريبية وعرضة للأخطاء المحتملة في القياس والمقارنات، ونتائجها اجتهادية وقابلة للتعديل بالإضافة والحذف، وليست نهائية. وإننا لنرى أن العالم عندما يصل إلى قانون أو نظرية يقول: إن هذا هو ما وصلنا إليه حتى الآن، ويترك الباب مفتوحاً لما قد يستجد من التعديلات)[١].

وأن يسمعوا ما يُصرّح به العالم الطبيعي أوليفر وندل إذ يقول:

(كلّما تقدمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقّة الخلاف، فالفهم الحقيقي للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله)[٢].

وأن يقرأوا ما تحدث به الكاتب الماركسي جون لويس عن التطور والانتقاء الطبيعي فقال:

(إن هذه الآراء... لا تزال غير تامة وهي تحتاج حتماً لتعديلات وإعادة نظر مستمرة)[٣].

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم: ١٨.

(٢) المصدر السابق: ٥٤.

(٣) الإنسان والارتقاء: ١٨.

المصادر والمراجع

١. أصل الأنواع: تشارلس داروين (ترجمة إسماعيل مظهر)، بيروت ١٩٧١م.

٢. الله بين الفطرة والدليل: [موسوعة العلامة الكبير الشيخ محمد حسن آل ياسين رحمه الله/ المؤلفات]، بيروت ١٤٣٣هـ.

٣. الله يتجلى في عصر العلم: ترجمة د. الدمرداش عبد المجيد، القاهرة ١٩٦٨م.

٤. الإنسان والارتقاء: جون لويس (ترجمة عدنان جاموس)، دمشق ١٩٧٠م.

٥. تاريخ الفلسفة اليونانية: يوسف كرم، القاهرة ١٣٨٦هـ.

٦. رسائل: إخوان الصفا، بيروت ١٣٧٧هـ.

٧. الشفاء: ابن سينا (الطبيعيات – الفن الخامس)، القاهرة ١٣٨٥هـ.

٨. الشمس والحياة: د. محمود خيري علي، القاهرة ١٩٦٣م.

٩. صور من الحياة: د. مصطفى عبد العزيز، القاهرة ١٩٦٣م

١٠. العدل الإلهي بين الجبر والاختيار: محمد حسن آل ياسين، بيروت ١٣٩٢هـ.

١١.العلم يدعو إلى الإيمان: د. كريسون، القاهرة ١٩٦٥م.

١٢.قصة الإنسان: د. جورج حنا، بيروت ١٩٥٩م.

١٣.قصة الحياة: د. أنور عبد العليم، القاهرة ١٩٦٤م.

١٤.لويس باستير: د. محمد صابر، القاهرة ١٩٧١م.

١٥.نظرية الحركة الجوهرية: هادي العلوي، بغداد ١٩٧١م.

١٦.النظرية المادية في المعرفة: روجيه غارودي، دمشق (دار دمشق).

١٧.نقد الفكر الديني: د. صادق جلال العظم، بيروت ١٩٧٠م.

الفهرس

ينتج غياب الرؤية السليمة الكاملة وتهافت المسلمات في أي منظومة فكرية عدم ارتياح وتوجساً ثم قلقاً فاضطراباً ثم بحثاً عن حلول خارج المنظومة المتبعة، وتبديل الناس معتقداتهم دليل حي.

ويدخل الإسلام في هذا التعميم كنظام له خصائصه ومقوماته، طرح تصوراته عن الكون والحياة، ونشر قوانين وأحكام مستمدة من تصوراته ليبلغ بالإنسان مكانته المنظورة.

لكن هل الإسلام فاقد للرؤية أم يملكها وهي تامة كاملة فيه؟ وهل التقصير في المتلقي حين طلب المعرفة ولم يخط الخطوات المفروضة إتباعها؟ فأخذ من منبع غير صافٍ وترك المعين، فلم تطمئن نفسه فوقع في حيرة من أمره.

